﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٧٧﴾ [النِّساء: 77]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين نصرة المستضعفين، وبين التّنديد بالخوف والرّكون إلى الدّنيا الغرور

لَمَّا هيَّأ الله ﷻ النَّصرَ للمُستَضعَفين بأيدي المجاهدين في سبيله، وأَعلمَهم أنَّ كيدَ الشَّيطان كان ضعيفًا، جاء بيان الله في هذه الآية ليُخبرَنا بأنَّ الَّذين أُمروا بالقتال منَ المؤمنين بعد فترةٍ منه، بسبب ضَعفِ شوكتِهم وقلَّة عدَدِهم وعُدَّتِهم، وقد كانوا يَرجونَه ويَودّونَه، إذا بهم يَجزَعون ويخافون منه، ويَأملونَ تأخيرَه إلى أجلٍ آخَر، ويذكّره بضآلة الدّنيا، وأنّ الآخرة خير وأنعم، وأنّ الله لا يظلم أحدًا، بل سوف يوفّي كلّ أحد جزاءَ ما عمِلت يداه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كُفُّوٓاْ﴾: الكفُّ: كفُّ الإنسان، وهي ما بها يَقبِضُ ويَبسُطُ، وكَفَفتُه: أَصَبتُ كَفَّهُ، وكَفَفتُهُ: أَصَبتُه بالكفِّ ودفعتُه بها، وتُعورِفَ الكَفُّ بالدَّفع على أيِّ وجهٍ كان، بالكَفِّ كان أو غيرها[1]، وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾[2] [التَّوبة: 36]، قِيل: معناه: كافِّين لهم كما يُقاتلونَكم كافِّين،

(1) الرّاغب، المفردات: (كف).

(2) وقولُه: ﴿كَآفَّةٗ﴾ مُشتقٌّ من كِفَّة الشيَّء، وهي حرفُه، وإنَّما أُخِذَ من أنَّ الشيَّء إذا انتهى إلى ذلك كفَّ عنِ الزّيادة، ولا يجوزُ أن يُثَنَّى ولا يُجمع، ولا يُقال: قاتلوهم كافَّان ولا كافَّات، كما أنَّك إذا قلتَ: قاتلوهم عامَّةً لم تُثنّ ولم تُجمع، وكذلك خاصَّةً، وهذا مذهبُ النَّحويين، ينظر: الزَّجّاج، معاني القرآن: 2/446.

واستَكَفَّ الشَّمسَ: دَفَعها بِكفِّه، وهو أن يضعَ كفَّه على حاجبه مُستظلًّا منَ الشَّمس ليَرى ما يطلُبُه[1].

2) ﴿كُتِبَ﴾: من الكَتْبُ: وهو ضَمُّ الحروف بعضها إلى بعض بالخطّ، وقد يُقالُ ذلك للمضموم بعضها إلى بعضٍ باللَّفظ، فالأصل في الكتابة: النَّظمُ بالخطِّ، لكن يُستعارُ كلُّ واحدٍ للآخر، ولهذا سُمِّيَ كلامُ اللّه وإن لم يُكتَب كتابًا، كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: 1 - 2]، والكتاب في الأَصل مصدرٌ، ثمَّ سُمِّيَ المكتوبُ فيه كتابًا، والكتابُ في الأصل اسمٌ للصّحيفة مع المكتوب فيه، ويُعبَّرُ عنِ الإثبات، والتَّقدير، والإيجاب، والفَرض، والعَزم بالكتابة.وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ [المائدة: 45]، أي: أَوجَبنا وفَرضنا[2]، وهو كما في الآية الَّتي معنا: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ و﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ﴾، فـ﴿كُتِبَ﴾ و﴿كَتَبۡتَ﴾ كلاهما بمعنى: الإيجاب والفَرض. وقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التَّوبة: 51].وكَتبَ هنا بمعنى: ما قدَّره اللّه وقَضاه، قال الجعدي:

يَا ابْنَةَ عَمِّي كِتَابُ اللّهِ أَخْرَجَنِي *** عَنْكُمْ وَهَلْ أَمْنَعَنَّ اللّه مَا فَعَلَا[3]

وقوله تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ۝٤١﴾ [الطُّور: 41]؛ فذلك إشارةٌ إلى العلم والتَّحقُّق والاعتقاد[4].

3) ﴿خَشۡيَةَ﴾: خَشِيَهُ، خَشيًا: خافَه، وهو خَاشٍ وخَشٍ[5]، والخَشيةُ: أشدُّ الخوف، وهي أعلى مرتبةً منه، والخشيةُ: خوفٌ مَشوبٌ بتعظيم المَخشِيِّ، صادرٌ عن علم ويقين صادق، ومعرفة بعظَمتِه، وإن كان الخاشي قويًّا[6]؛ ولِذلك خُصَّ العلماءُ بالخشية في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]، وتكون بمعنى علمت، وهو من المجاز، قال الشّاعر:

وَلَقَدْ خَشِيتُ بِأَنَّ مَنْ تَبِعَ الهُدَى *** سَكَنَ الجِنَانَ مَعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

(1) الرّاغب، المفردات: (كف).
(2) الرّاغب، المفردات: (كتب).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (كتب).
(4) الرّاغب، المفردات: (كتب).
(5) الفيروزآبادي، القاموس: (خَشِيَ).
(6) الزّملكانّي، البرهان الكاشف، ص: 91، والكفوي، الكليّات، ص: 317.

وقوله تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠﴾ [الكهف: 80]، قال الأخفش: معناه كرهنا[1]، والأصل أنّ الخشية من الله هي الخوف منه، ومن ذلك قول عنترة:

وَلَقَدۡ خَشِيتُ بِأَنۡ أَمُوتَ وَلَمۡ تَدُرۡ *** لِلۡحَرۡبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابۡنَيۡ ضَمۡضَمِ[2]

4) ﴿أَجَلٖ قَرِيبٖۗ﴾: الأَجَلُ: المُدَّة المضروبة للشَّيء، قال تعالى: ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ [غافر: 67]، ويُقالُ: دَينُه مُؤَجَّلٌ، وقد أَجَّلتُه: جعلتُ له أَجَلًا. ويُقالُ للمُدَّة المضروبة لحياة الإنسان: أَجَلٌ؛ فيُقالُ: دنا أَجَلُه؛ عبارةٌ عن دُنُوِّ الأَجل. وأصلُه: استيفاءُ الأَجَل، أي: مُدَّةُ الحياة[3]، والتّأجيل: تحديدُ الأجل وقد أجَّله، وفي العُباب: التّأجيل: ضرب من الأجل، وفي التّنزيل: ﴿كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾ [آل عمران: 145][4]، واستأجلتُه أي: طلبتُ منه الأجل، فأجّلني إلى مدّة تأجيلا: أي أخّرني، والآجلة: الآخرة ضدّ العاجلة، وهي الدّنيا[5].

5) ﴿مَتَٰعُ﴾: المتاعُ: انتفاعٌ مُمتدُّ الوقت، يُقالُ: مَتَعَ النَّهارُ، ومَتَعَ النَّباتُ: إذا ارتفعَ في أوَّل النَّبات، ويُقالُ: مَتَّعَه اللّه بكذا، وأَمتعَه، وتمتَّعَ به، قال تعالى: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾ [يونس: 98]. ويُقالُ لمَا يُنتفَعُ به في البيت: مَتاع، وكلُّ ما يُنتفع به على وجهٍ ما فهو متاعٌ ومُتعةٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ﴾ [يوسف: 65]، أي: طعامَهم أو وِعاءَهم، وكلاهما متاع، وكلُّ مَوضِعٍ ذُكِرَ فيه التَّمتُّع أو متاع في الدُّنيا، فعلى طريق التَّهديد، وذلك لمَا فيه من معنى التَّوسُّع، واستَمتَعَ: طلبَ التَّمتُّع، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ﴾ [الأنعام: 128]، وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾ [البقرة: 36] تنبيهًا إلى أنّ لكلِّ إنسانٍ في الدُّنيا تَمتُّعًا مُدَّةً مَعلومة[6].

6) ﴿فَتِيلٗا﴾: الفَتيلُ: المَفتولُ، وسُمِّيَ ما يكون في شِقِّ النَّواة فتيلًا؛ لكونه على هيئته، يُقالُ: فَتَلتُ الحَبلَ فَتلًا. وفي قوله تعالى في الآية الَّتي معنا: ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾، الفَتيلُ: هو ما تَفتِلُه بين أصابعك من خَيطٍ أو وَسَخ، ويُضرَبُ به المَثَلُ في الشَّيء الحقير[7]، ولا أَحقَرَ منَ الدُّنيا، ومتاعِها، وطُلَّابِها، قال الشّاعر:

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (خَشِيَ).
(2) نشوان الحِميري، شمس العلوم: (الخشية).
(3) الرّاغب، المفردات: (أجل).
(4) الرّاغب، المفردات: (أجل).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أجل).
(6) الرّاغب، المفردات: (متع).
(7) الرّاغب، المفردات: (فتل).

أَعَاذِلَ بَعْضَ لَوْمِكِ لَا تُلِحِّي *** فَإِنَّ اللَّوْمَ لَا يُغْنِي فَتِيلَا[1]

وعن ابن السّكّيت: أنّه قال: (القطمير) القشرة الرّقيقة على النّواة، و(الفتيل) ما كان في شقّ النّواة، وبه سمّيت فتيلة السّراج، قال الأزهريّ: "وهذه الأشياء تضرب كلّها أمثالا للشّيء التّافه الحقير القليل، أي لا يظلمون قدرها"[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الخوف من القتال لا يؤخّر الأجل، والآخرة خير من الدّنيا لمن اتّقى وعمل

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكّةَ مأمورين بالصَّلاة والزَّكاة، وكانوا مأمورين بمُواساة الفقراء منهم، والصَّفح والعَفو عنِ المشركين، وكانوا يَوَدُّونَ لو أُمِروا بالقتال ليَشتَفوا من أعدائهم، ولم يكنِ الحالُ مُناسبًا حينذاك؛ بسبب قِلَّة عددهم أمام أعدائهم، وكونهم في بلد حرام، لم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداءً، ومع هذا لَمَّا أُمِروا، وهم في المدينة بما كانوا يأمُلونَه، جَزِعَ بعضُهم منه، وخافوا من مواجهة النَّاس خوفًا شديدًا، وقالوا: لولا أُخِّرَ فرضُ القتال إلى مُدَّةٍ أُخرى، فأجابهم الله تعالى بأنَّ مَتاعَ الدُّنيا قليلٌ أمام جَنب الآخرة، الَّتي هي خيرٌ للمتَّقين[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الاستفهام التَّعجُّبيُّ، وأثرُه في توضيح المعنى:

إحجامُ فئة منَ المسلمين عنِ الجهاد بعد شدَّة رغبتهم في مباشرته

قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وهذه الرّؤيةُ بصريَّةٌ حقيقيَّةٌ، في قوله: ﴿تَرَ﴾، وهذا الاستفهامُ تعجيبٌ لرسول الله ﷺ من إحجامهم عنِ القتال؛ ذلك أنَّهم كانوا حُرَّاصًا عليه، بحيث كادوا يُباشِرونَه كما يُنبِئُ عنه الأمرُ بكفِّ الأيدي، فإنَّ ذلك مُشعِرٌ بكونهم بصدد بَسطها

(1) الأنباريّ، الزّاهر: 1/253.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 1/253.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/466 - 467.

إلى العدوِّ بحيثُ يكادون يسطون بهم[1]، وقولُه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يُفيدُ أنَّ الرَّسول ﷺ لم يُؤمَرْ بقتالهم، وجاء بناء القول للمفعول، مع أنَّ القائل هو الرَّسول ﷺ ؛ للإيذان بكون ذلك بأمر الله ﷻ، ولأنَّ المقصود بالذَّات والمعتَبَرَ في التَّعجيب إنَّما هو كمالُ رغبتهم في القتال، وكونهم بحيثُ احتاجوا إلى النَّهي عنه، وإنَّما ذُكِرَ في حيِّز الصِّلة الأمرُ بكفِّ الأَيدي لتحقيقه وتصويره على طريقة الكناية، فلا يتعلَّقُ ببيان خصوصيَّة الأمر غَرَض، وإنَّما وقع ذلك منهم لا شكًّا في الدِّين ولا رغبةً عنه؛ بل نفورًا عنِ الإخطار بالأرواح، وخوفًا منَ الموت بمُوجَب الجِبِلَّة البشريَّة.

أسلوب العطف وأثره في ترسيّة المعنى المسوق في الآية:

جاء هذا القول عطفًا على ﴿قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ باعتبار مدلوله الكنائيّ؛ إذ حينئذٍ يتحقَّقُ التَّبايُنُ بين مَدلولَيِّ المعطوفَين، وعليه يدورُ أمرُ التَّعجيب كما تقدَّم آنفًا؛ ذلك أنَّ قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ﴾ جاء جوابًا لقوله: ﴿فَلَمَّا﴾، وقوله: ﴿فَرِيقٌ﴾ مبتدأ، و﴿مِّنْهُمْ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوف وقع صفةً له، و﴿يَخْشَوْنَ﴾ خبرُه، وقد أفاد السّياق، حالة التّردّد والتّذبذب التي أصابت الحالة المعنوية والنفسية للمؤمنين، فقد كانوا يتوقون إلى القتال في سبيل الله، فلمّا كتب عليهم ما طلبوه، فترت الهمم، وتأخّرت الإرادة عن مأمور الله، فكانت الآية تذكيرا لمن نسي، حتّى يعود إلى رشده، ويلتزم أمر ربّه.

أفاد العطفُ بيانَ تغيّرِ الحال، من التّوق للجهاد إلى التّقاعُس

دلالة ﴿إِذَا﴾ الفجائيّة، في قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ﴾:

وتصديرُه بـ﴿إِذَا﴾ المفاجِئَة، لبيان مُسارعتِهم إلى الخشية، حيث تفاجأ فريقٌ منهم، خشيةً من مغبّة الحرب الضّروس، وخوفًا من

لا ينفع حذرٌ من قدر، والله خيرٌ حفظًا

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/736 - 737.

الكفَّارَ أن يقتلُوهم، ولعلَّ توجيهَ التَّعجيب إلى الكُلِّ، مع صدور الخشية عن بعضهم؛ للإيذان بأنَّه ما كان ينبغي أن يَصدُرَ عن أحدهم ما يُنافي حالتَهم الأُولى[1]، و﴿إِذَا﴾ ظرفُ مكان، وظرفُ المكان في مثل هذا يجوز أن يكون خبرًا للاسم الَّذي بعده، وهو ﴿فَرِيقٌ﴾، ويكون قوله ﴿مِّنْهُمْ﴾ صفةَ ﴿فَرِيقٌ﴾، ويكون قوله ﴿يَخْشَوْنَ﴾ حالًا[2]، والعاملُ في الظَّرف على هذا الاستقرار.

دلالة إضافة المصدر (الخشية) إلى لفظ الجلالة (الله):

خشية الله رسوخ وهداية، وخشية النّاس وهمٌّ وغواية

قوله تعالى: ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ هو من إضافة المصدر إلى لفظ الجلالة، وهو إعرابيا مفعول منصوب على التّعظيم، ومحلُّ قوله ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ منَ الإعراب النَّصب على الحال منَ الضَّمير في ﴿يَخْشَوْنَ﴾ أي: يَخشَونَ النَّاس مِثلَ أهل خشية الله؛ أي: مشبّهين لأهل خشية الله، وقوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ بمعنى: أو أشدَّ خشيةً من أهل خشية الله، و﴿أَشَدَّ﴾ معطوفٌ على الحال[3]، وإضافة الخشية إلى الله، يوحي بأنّ الخشية لا تكون على الحقيقة إلّا منه، وأنّ خشية النّاس عرضٌ ومرضٌ، ولئن استشعر هؤلاء المهزومون نفسيًّا، خشيةً في نفوسهم للنّاس رغم أنّهم مؤمنون، فإنّها كخشية الله ظاهرا، ولكنّها في الحقيقة لا تدانيها، فإنّ مشابهة صفة الخالق وفعله، بصفة المخلوقين وأفعالهم، غير ممكنة، فلا وجهَ للمقارنة بين الخشيتين، والمعنى بحاجة إلى تدبّر، قال النّسفيّ: "يخافون أن يقاتلهم الكفّار كما يخافون أن ينزل الله عليهم بأسَه، لا شكًّا في الدّين ولا رغبةً عنه، ولكن نفورًا عن الإخطار بالأرواح، وخوفًا من الموت. قال الشّيخ أبو منصور رحمه الله: هذه خشية طبع، لا أنّ ذلك منهم كراهة لحكم الله وأمره اعتقادًا، فالمرء مجبولٌ على

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/737.
(2) العكبريّ، التبيان: 1/187.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/543.

كراهة ما فيه خوف هلاكه غالبًا، وخشية الله من إضافة المصدر إلى المفعول ومحله النّصب على الحال من الضّمير في يخشون أي يخشون النّاس مثل خشية الله، أي مُشبهين لأهل خشية الله"[1].

معاني (أو) العاطفة، وأثرها في دلالة هذه الآية:

حـروف العطف تـربـط المـبـاني، وتفسّح المعاني

كلمةُ (أو) فيها وجهان: الأوَّلُ: أنّها للتَّنويع على معنى أنَّ خشيةَ بعضهم كخشية الله، وأنَّ خشيةَ بعضهم أشدُّ منها، والثَّاني: للإبهام على السَّامع، وهو قريبٌ ممّا في قوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧﴾ [الصَّافَّات: 147][2]، وانتصَبَ ﴿خَشۡيَةَۚ﴾ على التّمييز لنسبة ﴿أَشَدَّ﴾، والمعنى يخشَوْنهم مُشْبِهين لأهل خشيةِ الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةَۚ﴾ عطفٌ عليه، بمعنى: أو أشدَّ خشيةً من أهل خشيةِ الله، أو على أنَّه مصدرٌ مؤكّدٌ على جعل الخشيةِ ذاتَ خشيةٍ، مبالغةً كما في (جدّ جِدُّه)، أي يخشَوْنهم خشيةً مثلَ خشيةِ الله أو خشيةً أشدَّ خشيةً من خشية الله.

الاستفهام، وأثرُه في تجلية المعنى في السّياق:

أفـاد الاستفهام إيـضـاح حـال مـريـدي إرجـاء القتال ومقالهم

قولُه: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ﴾ يعني: هلَّا أخَّرتنا، يُريدونَ المُهلة إلى وقتٍ آخَر، قريبٍ منَ الوقتِ الَّذي فُرِضَ عليهم فيه القتال، وقولُهم ذاك لا يعني الاعتراضَ على حُكمه تعالى، والإنكارَ لإيجابه؛ بل على طريق تمنّي التَّخفيف؛ ولِذلك جاء قولُه: ﴿لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ﴾، استزادةً في مُدَّة الكفِّ، واستمهالًا إلى وقتٍ آخر؛ حذرًا منَ الموت. وقد جُوِّزَ أن يكون هذا ممَّا نطقَت به ألسنةُ حالِهم، دون أن يَتفوَّهوا به صريحًا[3]، وهذا على أنَّ القائلَ بلسان المقال أوِ الحال، هم بعضُ صحابة رسول الله ﷺ، وذلك أنَّ هناك أقوالًا

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/375.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/738.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/738.

سوى هذا القول في شأن مَن قال هذا القول: الأوّلُ: أنَّ المرادَ بهم اليهود، فقد نزلَتِ الآيةُ فيهم، والثَّاني: أنَّها في قومٍ منَ المؤمنين، لم يكونوا راسخين في العلم، والثَّالثُ: أنَّهمُ المنافقون[1]؛ لأنَّ قوله: ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾، لا يَليقُ بالمؤمنين، وكذلك خشية من غير اللّه تعالى، لا تليق بهم؛ لذلك فالقولُ الأخيرُ أشبَه بالسِّياق، وأَلزَمُ بالمصير إليه، لِمَا هو معلومٌ من لسان حال المنافقين ومقالهم، في عديد منَ المَواقِف الَّتي ذكرَها بيانُ اللّه تعالى في كتابه الكريم.

أسلوبُ التَّوبيخ، والعطفُ، وأثرُهما في توضيح المعنى:

تأكيد التزام الأمر بالجهاد، وأنَّه لا يُنقَصُ لأحد ثواب

هذا جوابٌ عن قولهم: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ سواءٌ أكانَ قولُهم لسانيًّا، وهو بيِّنٌ، أم كان نفسيًّا؛ لِيَعلموا أنَّ اللّه أطلعَ رسولَه ﷺ على ما تُضمِرُه نفوسُهم، أي: أنَّ التَّأخير لا يفيد، والتَّعلُّقَ بالتَّأخير لاستبقاء الحياة لا يوازي حظَّ الآخرة، وبذلك يَبطُلُ ما أرادوا منَ الفتنة على قول: إنَّهم المنافقون بقولهم: أخِّرتَنا إلى أَجَلٍ قريب[2]. وتنكيرُ ﴿قَلِيلٌ﴾؛ للتّقليل والتّحقير، وإنَّما قِيلَ: ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾؛ حثًّا لهم على اتِّقاء العصيان، والإخلال بواجب التَّكليف، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، عَطفٌ على مُقدَّرٍ يَنسحِبُ عليه الكلام، أي: تُجزَونَ ولا تُنقَصُونَ أَدنى شيء من أجور أعمالكم الَّتي مِن جُملتِها مَساعكم في شأن القتال، فلا ترغبوا عنه[3]، وحلَّ هذا القولُ في مَوقِع زيادة التَّوبيخ الَّذي اقتضاه قوله: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾، أي: لا تُنقَصونَ شيئًا من أعمالكم المكتوبة، فلا وَجهَ للخوف، وطلب تأخير فرض القتال.

حرّم الله الظّلم على نفسه، وحرّمه على عباده، لكيلا يظّالموا

دلالات نفي الظّلم عنِ الله، في قوله: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾:

ويمكن أن يكون معنى نفي الظُّلم هنا، أنَّهم لا يُظلَمون بنقص

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/171، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/134.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/127.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/738.

ثواب جهادهم، فيكونُ موقعُه مَوقعَ التَّشجيع؛ لإزالة الخوف، ويكونُ نصبُ ﴿فَتِيلًا﴾ على النِّيابة عنِ المفعول المطلق، ويمكن أن يكون المعنى: أنَّهم لا يُظلَمون بنقص أقلِّ زمن من آجالهم، ويَجيءُ على هذا التَّفسير أن يُجعَلَ ﴿تُظْلَمُونَ﴾ بمعنى تُنقَصون، كقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: 33]، أي: كلتا الجنَّتين من أُكُلها، ويكون ﴿فَتِيلًا﴾ مفعولًا به، أي: لا تُنقَصون من أعماركم ساعة، فلا مُوجِبَ للجُبن[1]، وتنكيرُها أفاد التّقليل والتّحقير، وفي قوله: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ قراءتان: الأُولى: بتاء الخطاب على أنَّه أمَرَ الرَّسولَ ﷺ أن يقوله لهم، والثَّانية: بياء الغَيبة على أن يكون ممَّا أخبرَ الله به رسوله ﷺ ليبلِّغَه إليهم[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكَفّ والإمساك والمنع:

الكَفُّ عنِ الفعل هو الامتناعُ عن مُوالاة الفعل، وإيجاده حالًا بعد حال، خلافُ الانبساط فيه، يُقال: كفَّ عنِ القتال، كما يُقال: كفَّ عن شرب الماء، وأصل الكَفِّ: الانقباضُ والتَّجمُّع، وتُعورِفَ الكفُّ بالدَّفع على أيِّ وجهٍ كان، وفيما تدعو الشَّهوة إليه، وفيما لا تدعو إليه[3]، والإمساك: حَبسُ النَّفس عنِ الفعل، ونَقيضُه الإرسال[4]، والمنعُ يكون عن إيجاد الفعل[5]، وليس يُضادُّ القَدرة؛ بل ليس يُسمَّى منعًا إلَّا إذا كان مع القُدرة، فليس هو منَ العَجز في شيء[6]، وهو يُستعملُ فيما له قصدٌ، وفيما ليس له قصدٌ، فيُقالُ: منعَ الحائطَ عنِ المَيل، مع أنَّ الحائطَ لا قصدَ له، ويُقالُ: منعَ الأبُ ابنَه منَ ارتكاب المعصية، وهذا فيه توجُّهٌ وقَصد[7]. وممَّا تقدَّم بيانُه، يظهرُ أنَّ استخدام البيان الإلهيِّ لفعل الأمر ﴿كُفُّوٓاْ﴾ أولى بالسِّياق من صاحبَيه (أمسِكوا) و(امنَعوا)؛ لأنَّ الله تعالى أَمرَهم أن يَقبِضوا أيديَهم عنِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/127.
(2) الأولى: قراءة الجمهور، والثَّانية: قراءة ابن كثير، وحمزة، والكِسائي، وخَلَف، وأبي جعفر، ورَوح عن يعقوب، ينظر: راجح، القراءات العشر المتواترة، ص: 90.
(3) الرّاغب، المفردات: (كف)، العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 517.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 517.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 516.
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 352.
(7) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 311.

القتال، فلا يُقدِموا عليه بأيِّ وجه منَ الوجوه، وبأيِّ حالٍ منَ الأحوال، مع حُبِّ نفوسهم للقيام به، وتَلَهُّف قلوبهم للإسراع إليه، وهذه كُلُّها من معاني الكفّ.

(فُرِضَ) و(كُتِبَ):

الفَرضُ لغةً: الحَزُّ في الشَّيء، وهو أيضًا ما أَوجَبَه الله تعالى، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ له معالمَ وحدودًا، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾ [النِّساء: 118] أي: مُقتطعًا محدودًا. و(فَرَضَ) اللهُ علينا كذا، و(افترضَ) أي: أَوجبَ، والاسمُ: الفريضة[1]، ولكنَّ البيان الإلهيّ استخدم الفعل ﴿كُتِبَ﴾ لمراعاة الأَصل في الكَتْب والكتابة، وهي الضَّمُّ للحروف بعضها إلى بعضٍ بالخطِّ واللَّفظ، مع شُمولِ الكلمة لدلالاتٍ عديدة، لا يَسَعُها الفعلُ (فُرِضَ)، كالإثبات، والتَّقدير، والإيجاب، والفَرض، والعَزم، والتَّحقُّق، وهذه كُلُّها تَصلُحُ في السِّياق، فأمرُ الله لهم بالقتال في سبيله مُثبتٌ، ومُقدّرٌ، وواجبٌ، ومُحقَّقٌ.

الخَشية والخَوف:

وأمَّا (الخَوفُ) فإنَّه توقُّعُ مكروه عن أَمَارةٍ مَظنونةٍ أو معلومة، فإذا تَيقَّنَ الضَّررَ لم يكن خائفًا من وقوعه[2]، والخوفُ يكون غالبًا من ضَعف الخائف، وإن كان المُخَوَّفُ أمرًا يَسيرًا، وشَيئًا هَيِّنًا، كما قد يكون عن تسلُّط بالقهر والإرهاب، كما قال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾[3] [النَّمل: 10]، وإذا كانتِ الخشية أعلى مَرتبةً منَ الخوف؛ بل هي أشدُّ الخوف، وهي خوفٌ مَشوبٌ بتعظيم المَخشِيِّ، وإن كان الخاشي قويًّا[4]؛ عَلِمنا يقينًا أنَّ ما أتى به سياق النَّصّ القرآنيّ، هو الأَوجَبُ والأَوفى، من كلمة (الخوف)، أو أيِّ كلمةٍ أُخرى، يُظَنُّ أنَّها مرادفةٌ لها، فلا تُؤدِّي بدلَها المعنى كاملًا.

فأولئك الَّذين تَخاذَلوا عنِ الجهاد بعد طَلَبهم له، ما كان حُجَّتَهم إلَّا أنَّه أصابتهم رِعدةٌ من مواجهة أعدائهم، وهم أكثرُ منهم عَدَدًا، وأقوى عُدَّةً، وقد يكون الموت منهم قابَ قوسَين أو أَدنى، ولم يتسلَّل حينذاك إلى قلوبهم مجرَّدُ الخشية؛ بل يُصوِّرُ بيانُ الله

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فرض).
(2) الجرجانّي، التَّعريفات، ص: 54.
(3) الزَّركشّي، البرهان: 4/78 - 79.
(4) الزّركشّي، البرهان: 4/78.

حالَهم في الخشية، فهي ليسَت كخَشيتِهم منَ اللّه فَحَسب؛ بل أشدَّ خشيةً من خشيتهم للّه، وهذه طامَّةٌ كبرى، وصاخَّةٌ عظمى.

الفَتيل والقِطمير:

وأمَّا القِطمير: فهو الفُوقَةُ الَّتي في النَّواة، وهي القِشرة الرَّقيقة الَّتي تحيط بها وتُغلِّفها[1]، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾ [فاطر: 13]، فالفَتيلُ الَّذي في شقِّ النَّواة، هو أصغر حجمًا منَ القِطمير الَّذي هو غلافُها، إضافةً إلى أنَّه ما يُفتَلُ بين الأصابع من خَيطٍ أو وَسَخ، ويُضرَبُ به المَثَلُ في الشَّيء الحقير[2]؛ ولذلك فاستخدامُ البيان الإلهيِّ لكلمة ﴿فَتِيلًا﴾ أقوى دلالةً في تعبير سياق النَّصِّ القرآنيِّ من كلمة ﴿قِطۡمِيرٍ﴾، فأولئك الَّذين دَعاهم بيانُ اللّه للجهاد في سبيله لن يُظلَموا يوم القيامة، ولن يُنقَصوا من أُجور أعمالهم ومنها الجهاد شيئًا، ولو قَدْرَ ذاكَ الفتيل البسيط الَّذي في شِقِّ النَّواة.

(1) الفيروزآبادي، القاموس: (قَطْمَرَ).
(2) الرّاغب، المفردات: (فتل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع، سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 7 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-59-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 7 : سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-59-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5066600 بتاريخ 2023/03/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»